(الإعلان بأحكام البنيان) وابن الرامي

التشريعات والقوانين البنائية في المدينة العربية الإسلامية

نظرة تحليلية

تطرقت العديد من الدراسات لنشأة وتطور المدينة العربية الإسلامية منذ عصر الرسول الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه، مرورا بالعصور الإسلامية المتعاقبة، الاموية فالعباسية، ثم في عصر الفتوحات الإسلامية. بيد ان هذه الدراسات تجمع على وجود خيط من أوجه التشابه بين المدن العربية التي نمت في تلك الفترة، وهذا الشبه منبعه المحتوى والفكر الذي تأسست عليه المدينة العربية الإسلامية، وليس المفردات الناتجة المتشابهة ذاتها. وبكلمات اخرى تجتهد هذه الدراسات في البحث وتقصي المعاني والاسس التي خططت المدينة العربية الإسلامية، وتجمع أغلبها على كونها مستمدة من وحي العقيدة والشريعة الإسلامية، فيما يعزو البعض هذه المبادىء الى اطر اعم كالبيئة والمناخ الاجتماعي الذي يتشكل ويشكل ثوبا فضفاضا يمكن أن يتسع فيضم الحياة الدينية والاعراف والتقاليد السائدة وغيرها من عناصر المنظومة الاجتماعية التي يتحرك المجتمع من خلالها.

وليد السيد — جامعة لندن

قصوره في استعمال اللغة احيانا للتعبير عن المستجدات والمسائل فينزع كثيرا الى الاستنجاد باللغة العامية وهي مما يعيب التسلسل والمتانة اللغوية بالكتاب.

بالنظر في محتوى كتاب ابن الرامي وهو بلا شك وثيقة تاريخية مهمة تعكس وتسجل ابرز ما كان يدور في اوساط البناء والبنيان في اوج الحضارة العربية الإسلامية، الا انها لا تفك رموز الابداعات التي نشهدها في العمارة انما تسجل وقائع اجتماعية وخبرات مهنية تعكس مرحلة زمنية يمكن الاستفادة من دروسها كآلية لا كطريقة أو نظرية يمكن تطبيقها ونقلها. وتبين كما ذكرنا سابقا مساجلات قانونية لمعالجة اوضاع قائمة لا تقديم نظرية مسبقة للتخطيط كما هو الحال في المدن العربية اليوم. وهذه المشكلات المتفاقمة التي حفلت بها المدينة العربية الإسلامية والتي شغلت القضاء ودواوين الدولة آنذاك لا يمكن لها بحال ان تحتل اي حيز في الديوان القضائي اليوم، فهناك مراقبة صارمة من قبل النقابات المهنية قبل اعطاء اذونات الترخيص، ويمكن ان يتم مسبقا تخيل ما سيكون عليه شكل المبنى، ليس ذلك فحسب انما بالنسبة لعلاقته بما يجاوره من ابنية وموقعه من النسيج الحضري ككل. اما عن الفرق بين المنظومتين الاجتماعيتين بين الماضي والحاضر وكذلك البيئة المبنية والنسيج الحضري ومن يناسب اكثر فهذه مسألة اخرى تتعلق بمرحلية زمنية وبمسائل متعلقة اخرى كالهوية والمناخ وامور حضارية ثقافية اخرى تحتل اهمية اخرى، ولكن المهم هنا ان ندرك ما يجب ان نأخذ وما لا نأخذ من التاريخ، اين ينبغي ان نتوقف دراستنا لمسائل تاريخية من حضارتنا العربية الإسلامية المجيدة ان كان لنا ان ننهض بحضارة عربية اسلامية معاصرة لا تشكل اجترارا للماضي أو اعادة استنساخه في القرن الحادي والعشرين عصر (الاستنساخ الجديد).

وفي حالة المدينة العربية الإسلامية، فقد أوردت الدراسات المختلفة ادوارا مختلفة لعوامل اثرت في تقنين الناتج الفيزيائي للمدينة، فمن هذه العوامل دور الحسبة والمحتسب، والقضاء والتشريعات المستمدة من الشريعة الإسلامية، وكذلك الاعراف الاجتماعية التي اسهمت بشكل كبير في تناقل خبرات بنائية واجتماعية انعكست مباشرة في الناتج الفيزيائي للمدينة، بالاضافة الى انها شكلت نمطية معينة من السلوكيات الاجتماعية تبعا لذلك. ويبدو ان هذه العوامل الثلاثة وغيرها حاضرة في كل زمان وإن تبدلت صفتها وشكلها ومسماها. وببساطة هي تمثل الضوابط القانونية والتشريعية للتحكم في النمو البنائي الفيزيائي للبيئة المبنية. وتجتهد الدراسات المختلفة في رفع صفة هذه العناصر الثلاثة وهيمنتها في التخطيط المسبق للمدينة. فيما تعقد مقارنات ابسط ما يمكن ان توصف بها انها تحيزية باتجاه الماضي حين تقلل من شأن هذه العناصر الثلاثة في الوقت الحاضر وإن اختلفت مسمياتها. ويبدو ان العكس هو الصحيح بين الحالتين: ففي حالة المدينة العربية التقليدية كانت هذه العوامل الثلاثة تقوم بدور (الترقيع) والمراقبة لما يستجد من مشكلات (عدم التخطيط المسبق) والنمو العشوائي العفوي، فيما تلعب هذه العوامل الثلاثة حاليا دورا صارما في منع المشكلات قبل حدوثها بتقنين نمو المدينة (والتخطيط المسبق لنموها). ويبدو انه قد آن الاوان لهذه الدراسات العاطفية والمتعاطفة مع الماضي ان تكتفي بوصف الماضي كنموذج (تاريخي) لا تراثي يمكن تبنيه بمجمله ونقله عبر الحاضر اذ تشكل هذه الاستعارات (المتعاطفة) خطرا يتمثل بتمديد الماضي لجعله ينوب عن الحاضر علما باختلاف المكان والزمان وتبدل الاحوال الفكرية والمعيشية والبيئية. أو ان هذه الدراسات تشكل قراءة تراثية للعصر وهي من أخطر القراءات التي

يعرفها محمد عابد الجابري.

وفي اطار القواعد التي قعدت النمو في المدينة العربية الإسلامية وصبغت البيئة المبنية بطابعها الذي نراه ورد دور الحسبة والمحتسب في الإسلام، حيث تولى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هذا الدور بنفسه حين كان يطوف بالمدينة مصححا ما يجده من خلل، ثم نقلها - صلى الله عليه وسلم - الى عمر بن الخطاب بالمدينة وعمرو بن العاص بمكة. ومع تطور الوظيفة انشأ ديوان الحسبة برئاسة عمر بن الخطاب كما يروي الماوردي في الاحكام السلطانية. ومع تطور النمو في المدن العربية الإسلامية واتساع رقعة الامبراطورية حتى جنوب الاندلس، تطورت مجموعة من الخبرات فيما يتعلق بقوانين البناء والمشكلات التي وردت بالقضاء، وكان القضاة يستنجدون بالاضافة الى العلم الشرعي في (فض النزاعات بين الجيران في مسائل البناء) - كمن فتح ميزابه على باب جاره، الخ وهي مسائل تنم عن عفوية في النمو للمدينة، أو اقام حائطا سد الريح عن جاره، الخ - ببعض المتمرسين في خبرة البناء ومنهم ابن الرامي (توفي سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م) الذي كان مشهورا بخبرته الفذة في مسائل البناء والقوانين ومتعلقاتها، والتي صنفها في كتابه (الاعلان باحكام البنيان)، فما هو مضمون هذا الكتاب، وما هو محتواه؟

فقد تراكمت لابن الرامي (محمد ابن ابراهيم اللخمي) بمرور الزمن مجموعة من القضايا في النزاعات بين المتخاصمين حول مسائل البناء جملة من الاحكام والفتاوى والاوضاع العرفية التي غدت بمثابة القوانين البلدية، فقام بتصنيفها ضمن كتب: الاول كتاب الابنية في الجدار، والثاني كتاب نفي الضرر، والثالث كتاب عيوب الدور، والرابع كتاب الغروس، والخامس كتاب الارحية.

اما كتاب الابنية في الجدار فيشتمل اساسا على مسائل في النزاعات بين الجيران المشتركين في جدار واحد نظرا لتلاصق المدينة ودورها، وذلك حين قسمته أو بنائه أو اعادة بنائه اذا انهدم أو استغلاله لحمل السقف عليه، ويبدو هذا الباب منسجما وتجانسا دون إسهاب أو استطراد. اما كتاب نفي الضرر فيعتمد ابن الرامي فيه منهجا فقهيا ، ويلاحظ ان ابن الرامي قد ركز على مسائل الضرر فيما يختص بالبناء والبنيان. وفي كتابه الثالث عيوب الدور يسجل ابن الرامي مجموعة من النوازل أو الوقائع التي عاينها بنفسه، بالاضافة لما يورده من دقائق الخبرات البنائية في مسائل البناء من ناحية مهنية، ويتميز هذا الكتاب بذلك عن غيره من كتابات الفقه النظرية بأنه يربط الفقه النظري بنوازل واقعية اثبتها في كتابه، اما كتاب الغروس فيبدو للوهلة الاولى بعيدا عن موضوع كتبه الثلاثة الاولى إذ ينفرد بالبحث في الحياة الريفية وما يتعلق بالنزاعات بين الملكيات، وبالنظر الى هذا الكتاب ضمن إطار شمولي تكاملي مع بقية الكتاب يمكن ايجاد العلاقة بين الكتب الاربعة من منظور البنيان الحضري والريفي أو كوقائع ونوازل ضمن منظومة اجتماعية واحدة يستفاد من مسائلها ككل متكامل. وكذلك قد يبدو الكتاب الخامس وهو كتاب الارحية التي تقام علي مجاري الانهار والاودية خارج التجمعات السكنية ليس ذو علاقة لصيقة بمضامين الكتب المتقدمة ، ويعيب هذا الكتاب وما سبق خلط ترتيب المسائل وتبعثر المفاهيم مما يعترف به ابن الرامي في مقدمة كتابه، اضافة الى

من مفردات التراث العربي الإسلامي:

المآذن ونشأتها في العمارة المسجدية في الإسلام (١)

العمارة والعمران عربياً وعالمياً

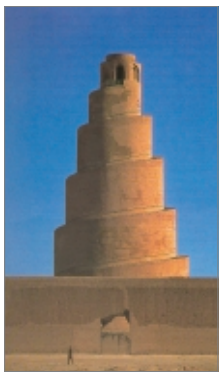

□ *لونارد – لندن:*

عرفت المئذنة في بادىء نشأة ظهورها في الإسلام بثلاثة الفاظ كل منها يطلق لوصف هذا البناء المرتفع الذي استعمل وظيفيا فيما بعد للنداء للصلاة وهذه الالفاظ الثلاثة هي: المئذنة أو المأذنة، والصومعة، والمنارة، وكل منها استعمل تاريخيا لوصف ذات البناء المرتفع. اما المئذنة فتشتق اسمها من الأذان أو النداء للصلاة، حيث يصعد المؤذن لاطلاق الأذان وجمع المسلمين من اطراف المدينة التي غالبا ما كانت صغيرة بما يكفي ليصل صوت المؤذن إلى اطرافها. اما الصومعة فيبدو ان العرب اعتادوا اطلاق هذه اللفظة على الأبراج التي كانت تنتشر بينهم في اديرة النصارى، ومن ذلك ما يروى ان كاتدرائية يوحنا المعمدان بدمشق احتوت برجا مرتفعا ، فيما يروي عن ابن جبير انه اطلق لفظة صومعة على احد الأبراج الاربعة التي يحويها الجامع الكبير بدمشق. وكلا البرجين استعمل لهما نفس اللفظة وهي صومعة. اما كلمة منارة والتي تعني اصلا الشيء الذي يصدر ضوءا كما في منارة الاسكندرية الشهيرة تاريخيا واحدى عجائب الدنيا السبع قديما. كما استعملت في اشعار العرب القديمة لمصابيح الانارة الزيتية وكذلك بيوت الفراعنة القدماء وانتقلت الى المساجد لاحقا. وتعتبر كلمة minaret الانجليزية تحويرا للاسم منارة باللغة العربية.

اما عن منشأ هذا العنصر المعماري المتميز واستخداماته في العمارة العربية الإسلامية، فيبدو ان ظهور هذا العنصر كان متأخرا في الفترة الاموية ولم يسبق ظهوره في فترة ظهور الإسلام الأولى. حيث خلت المساجد الأولى من المآذن في عهد الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يروي ابن هشام ان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم للمدينة صلى دون النداء للصلاة أو الأذان والذي شرع وفصلت كيفيته في رؤية رآها عبد الله بن زياد ورواها للنبي صلى الله عليه وسلم وقبلها وسنت وأمر صلى الله عليه وسلم بلال بالنداء للصلاة بتلك الكيفية والذي اصبح مؤذن النبي الاول، فصعد بلال الى سطح المسجد ونادى للصلاة، وسنت منذئذ هذه الكيفية للنداء للصلاة بصعود المؤذن لمكان مرتفع والنداء بتلك الكلمات لجمع المسلمين.

وتجمع الروايات التاريخية ان اول المساجد في الكوفة ومسجد البصرة اللذين بنيا في العام ١٧ للهجرة أو ٦٣٨ ميلادية قد خلا كلاهما من المئذنة ولم تعرف في هذين المسجدين. كذلك جامع عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط التي انشأها وهي احد المواقع القديمة للقاهرة حاليا لم يعرف المئذنة. ويروى عن الفرزدق انه وصف الأذان يطلق من على جدار كل مدينة مما يعطي وصفا عاما بان المئذنة لم تتطور بالشكل الذي نعرفه اليوم في ذلك الوقت. ولعل المنارات أو الأبراج الاربعة التي احتواها الجامع الاموي الكبير بدمشق التي لا ترتفع كثيرا يمكن ان تشكل اولى المآذن التي عرفت في الإسلام حيث اطلق عليها ابن الفقيه هذه اللفظة في العام ٩٠٣ هجرية رغم انها كانت من المآثر ما قبل ظهور الإسلام حيث كانت ابراج مراقبة ايام اليونان القدماء.

ويبدو ان تطور المئذنة في فترات الإسلام المتعاقبة قد تزايد وتسارع في مدن شمال إفريقيا مع تنامي الفتوحات الإسلامية وتوسع المدن العواصم ومدن الأمصار التي دخلها الإسلام، ويبدو ان مدينة القاهرة في زمن معاوية قد بدأت تشهد الصوامع التي امر ببنائها وكان ان تم ادخال السلم للصعود للمئذنة على زمن خالد بن يزيد. وفي هذا الإطار ضمن تطور المئذنة في مدن شمال إفريقيا نلقي مزيدا من الضوء في اسبوع قادم بإذن الله ضمن هذه السلسلة التي تبحث موضوع المئذنة وعمارتها في الإسلام، اصلها، ومنشؤها وتطورها.

روائع التراث العربي الإسلامي

الخط العربي
التصحيف والحروفية والمخطوطات الإسلامية

□ *لونارد – لندن:*

تدل الوثائق والمخطوطات القديمة عن قدم نشأة الخط العربي الى الفترة التي تعود لقرون عديدة قبل ظهور الإسلام. ومنها ما تم العثور عليه في جنوب الجزيرة العربية واليمن بشكل خاص، كما ظهرت انماط اخرى متطورة للكتابة في المناطق الشمالية من الجزيرة العربية وبلاد الشام.

بيد ان اولى النماذج من الخطوط العربية التقليدية اول ما ظهرت في سوريا حيث عثر على رقش بالحروف العربية في منطقة النمارة يعود للعام ٣٢٨ ميلادية وتحتوي احرفا عربية مكتوبة بالابجدية النبطية. فيما يعتقد البعض ان اقدم النماذج للكتابة العربية التي تم العثور عليها تعود للفترة ما بين ٥١٢ – ٥٦٨ ميلادية وهي نقوش وجدت بالقرب من دمشق، ومكتوبة بثلاث لغات هي اليونانية والسيريانية والعربية.

ومع ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم باللغة العربية اكتسبت الكتابة والحروفية العربية اهمية خاصة ونشات وترعرعت بشكل كبير. وفي بداية نزول القرآن الكريم كان العرب يعتمدون الحفظ والذاكرة بما عهد عنهم من قوة الذاكرة ولم تكن هناك حاجة للتدوين. الا ان الحاجة ظهرت لاحقا لحفظ نسخ من القرآن الكريم وتشكلت (كتبة الوحي) في عصر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. وهذه الكتابات كانت تدون كسور متفرقة وبخاصة ما كان منها ما يختص بالتشريع، ولم يتم جمعها في مصحف واحد الا متاخرا على عهد عثمان.

وقد امتازت الحروفية العربية في بادىء الامر بخلوها من التنقيط، اذ كانت عبارة عن حروف بسيطة التكوين تخلو من النقط بالشكل الذي نعرفه اليوم. ولم تظهر الحاجة للتنقيط الا زمن نصر بن عاصم، لظهور بعض الخلط في بعض الكلمات التي قد تغير المعنى أو المبنى للكلمة كالخلط الناتج بين كلمة (تبينوا) اذ يمكن ايضا قراءتها (تثبتوا) وهكذا. وقد ازدهرت الحروفية وصناعة الخط العربي ازدهارا كبيرا في العصرين الاموي والعباسي، بظهور العديد من الخطاطين المبدعين الذين طوروا الحروف وابدعوا في نسج ورقش لوحات وآيات بديعة من القرآن الكريم أو الحكم الانسانية. ومن هؤلاء الخطاطين الذين اسهموا في هذا التطور، ابن مقلة وابن البواب، وياقوت المستعصمي، وهم من ابرز رواد الخط العربي في العصر العباسي. ولم تكن اسهاماتهم تقتصر على تصوير شكل الحرف فحسب، انما يعزى اليهم الفضل في وضع قواعد للخط العربي، وايجاد النماذج السبعة الاساسية للخط: الرقعة والنسخ والديواني وجلي الديواني والثلث والفارسي والكوفي. ومن هذه النماذج السبعة اشتقت لاحقا انماط اخرى مثل الانواع العديدة للخط الكوفي كالكوفي الكورق والكوفي المغربي وغيرها.

وقد احترف الخط والحروفية العربية كمهنة العديد من الخطاطين والخطاطات على مر العصور الإسلامية وظهرت مدارس متعددة لتدريس قواعد الخط العربي منها المدرسة البغدادية والتي ابرزت رواد الخط العربي في النصف الثاني من القرن العشرين مثل مصطفى راقم وهاشم البغدادي.

اما المدرسة الاخرى فتمثلت في المدرسة التركية وابرز اعلامها حامد الآمدي. ويعتبر الخط العربي والحروفية ابرز ما ابدعته الحضارة العربية الإسلامية من فنون نظرية امتد تأثيرها للعمارة ولكافة انواع التشكيل الفني كالخزف والنسيج والنحاسيات والاعمال المعدنية وضرب النقود والاعمال الخشبية. ولا يكاد يخلو بيت في العالم العربي من هذا الفن الإسلامي الجميل الذي يشكل لوحات فنية في غاية الاتقان اضافة للمعاني البديعة التي تتضمنها المخطوطات الفنية من روائع الخط العربي الجميل الذي ينبغي ان نعتز به كتراث اصيل وأن يحظى الاقبال على تعلمه واتقانه باهمية اكبر على مستوى الدولة والافراد.